مشخص يميزه عن الجنس الآخر إما بارتفاع ترق وإما بنزول تدن . وقمة أجناس الوجود هو الإنسان الذى كرمه الحق بالحس والحركة والتفكير . ويلى الإنسان مرتبة جنسُ الحيوان الذى له الحس والحركة دون التفكير . ويلى جنس الحيوان مرتبة النبات، وهو الذى له النمو دون الحركة والتفكير .

وعندما تُسلب من النبات غريزة النمو يصير جماداً . إذن ترتيب الأجناس من الأعلى إلى الأدنى هو كالتالى : الإنسان ثم الحيوان ، ثم النبات ثم الجماد . وكل جنس من هذه الأجناس له خصائصه ، ويأخذ الجنس الأعلى خاصية زائدة .

وأدنى الأجناس هو الجماد الذى يخدم النبات ، والنبات يخدم الحيوان والإنسان . والحيوان يخدم الإنسان ، وهكذا نجد أن أعلى الأجناس هو الإنسان بينما أدناها هو الجماد . فكيف يأخذ أعلى الأجناس وهو الإنسان رباً له من أدنى الأجناس وهو الجماد ؟

إن تحكيم الفطرة فى ذلك الأمر ينتهى إلى حكم واضح هو سخف هذا اللون من التفكير . وفطرة رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل البعثة هدته إلى رفض ذلك ، وجاءت البعثة لتجعل من إلف عادة رسول الله وفطرته أمر عبادة للرسول صلى الله عليه وسلم ولكل من اتبعه .

﴿ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ ﴾

(من الآية ٥٦ سورة الأنعام)

إذن فمسألة عبادة المشركين للأصنام لا تنبع من هدى ولكنها خضوع إلى هوى ؛ لأن الهدى هو الطريق الموصل للغاية المعتبرة ، والهوى هو خواطر النفس التى تحقق شهوة . ولهذا نرى بعضاً من الذين يريدون إضلال البشر قد خرجوا بمذاهب ليست من الدين فى شىء ، مثل القاديانية والبهائية والبابية ، وغير ذلك من تلك المذاهب ، هؤلاء الناس يدعون التدين ، وعلى الرغم من ذلك يقدمون التنازلات فى أمور تمس الأخلاق ، ورأينا مثل ذلك فى بعض من القضايا التى نظرتها المحاكم أخيراً ، كالذى يدعى التدين ويقبِّل كل امرأة ، ولا ينظم العلاقة بين الناس بقواعد الدين ، ولكن يطلق الغرائز حسب الهوى . وذهب إليه أناس لهم حظ كبير ومرتبة من التعليم ،

وقد أوهموا أنفسهم بخديعة كبرى ، وظنوا أنهم أخذوا بالتدين ، بينما هم يأخذون حظ الهوى المناقض للدين .

﴿ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾

(من الآية ٥٦ سورة الأنعام)

أى أنك يا رسول الله عليك بإبلاغ هؤلاء المشركين أنك لا تتبع أهواءهم التى تقود إلى الضلالة ؛ لأن من يتبع مثل تلك الأهواء ينحرف عن الحق ، ولا يكون من المهتدين .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾

هنا يبلغ الحق رسوله صلى الله عليه وسلم أن تركه لعبادة الأصنام وإن كان أمراً قد اهتدى إليه صلى الله عليه وسلم بفطرته السليمة ، فإنه قد صار الآن من بعد البعثة عبادة ؛ لأن اصطفاء الحق له جعله يتبين هدى الله بالشريعة الواضحة فى « افعل » ولا « تفعل » ؛ فالرسول صلى الله عليه وسلم هو الأسوة الحسنة للناس ، ويؤدى كل فعل حسب ما شرع الله ، ويتبعه المؤمنون برسالته .

ومثال على ذلك من حياتنا المعاصرة : لقد نزل القرآن بتحريم الخمر ، والمؤمنون لا يشربون الخمر لأن الحق نهى عن ارتكاب هذا الفعل . ونجد الأطباء الآن فى كل بلدان العالم يحرمون شرب الخمر لأنها تعتدى على كل أجهزة الإنسان : الكبد ، والمخ ، والجهاز العصبى ، والجهاز الهضمى . ونجد « أفلاماً » تظهر أثر كأس الخمر على صحة الإنسان . وقد يرى إنسان غير مؤمن مثل هذا « الفيلم » فيمتنع عن الخمر

امتناع ابتغاء المصلحة لا امتناع التدين . ولكن علينا ـ نحن المسلمين ـ أن نقبل على مثل هذا الامتناع لأنه من الإيمان .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة فصلت)

هكذا نعرف أنه لا احد أحسن قولاً ممن يمتثل إلى أوامر الحق لأنه مُقرّ بوحدانية الحق سبحانه ، ويعمل كل عمل صالح ويقرّ بأن هذا العمل هو تطبيق لشريعة الله :

« قل إنى على بينة من ربى » القول يدلنا أننا دون بينة من الله لا نعرف المنهج ، ولكن ببينة من الله نعلم أنه إله واحد أنزل منهجاً « افعل » و « لا تفعل » . وجاء الحق هنا بكلمة « ربى » حتى نعرف أنه الخالق الذى يتولى تربيتنا جميعاً . وما دام سبحانه وتعالى قد خلقنا ، وتولى تربيتنا فلا بد أن نمتثل لمنهجه . وقد أنزل الإله تكليفاً لأنه معبود ، وهو فى الوقت نفسه الرب الذى خلق ورزق ، ولذلك نمتثل لمنهجه ، أما المكذبون فماذا عنهم ؟

﴿ وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾

(من الآية ٥٧ سورة الأنعام)

فالذين كذبوا بالله اتخذوا من دونه أنداداً، ولم يمتثلوا لمنهجه ، بل تمادى بعضهم فى الكفر وقالوا ما رواه الحق عنهم :

﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

وعندما نناقش ما قالوه ، نجد أنهم قالوا : « اللهم » ، وهذا اعتراف منهم بإله يتوجهون إليه . وما داموا قد اعترفوا بالإله فلماذا ينصرفون عن الامتثال لمنهجه وعبادته ؟ . هم يفعلون ذلك لأنهم نموذج للصلف والمكابرة المتمثل فى قولهم : « إن

كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » .

ألم يكن من الأجدر بهم أن يُعملوا العقل بالتدبر ويقولوا : إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه .

ونجد أيضاً أنهم لم يردوا على رسول الله فلم يقولوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عند محمد بل قالوا : « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك » . إنهم يردُّون أمر الله ويطلبون العذاب ، وتلك قمة المكابرة ، والتمادى فى الكفر وذلك بطلبهم تعجيل العذاب ، ولذلك يقول لهم رسول الله : (وكذبتم به ما عندى ما تستعجلون به) .

والاستعجال هو طلب الإسراع فى الأمر ، وهو مأخوذ من « العَجَلة » ، وهى السرعة إلى الغاية ، أى طلب الحدث قبل زمنه . وماداموا قد استعجلوا العذاب فلا بد أن يأتيهم هذا العذاب ، ولكن فى الميعاد الذى يقرره الحق ؛ لأن لكل حدث من أحداث الكون ميلادا حدده الحق سبحانه :

﴿ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴾

(من الآية ٥٧ سورة الأنعام)

إن الحكم لله وحده ، فإن شاء أن ينزل عذاباً ويعجل به فى الدنيا كما أنزل على بعض الأقوام من قبل فلا راد له ، وإن شاء أن يؤخر العذاب إلى أجل أو إلى الآخرة فلا معقب عليه .

ومن حكمة الحق أن يظل بقاء المخالفين للمنهج الإيمانى تأييداً للمنهج الإيمانى . ويجب أن نفهم أن الشر الذى يحدث فى الكون لا يقع بعيدا عن إرادة الله أو على الرغم من إرادة الله ، فقد خلق الحق الإنسان وأعطاه الاختيار ، وهو سبحانه الذى سمح للإنسان أن يصدر منه ما يختاره سواءً أكان خيراً أم شراً . إذن فلا شىء يحدث فى الكون قهراً عنه ؛ لأنه سبحانه الذى أوجد الاختيار . ولوأراد الحق ألا يَقْدِر أحد على شر لما فعل أحد شراً . ولكنك أيها المؤمن إن نظرت إلى حقيقة اليقين فى فلسفته لوجدت أن بقاء الشر وبقاء الكفر من أسباب تأييد اليقين الإيمانى .

كيف ؟ لأننا لو عشنا في عالم لا يوجد به شر لما كان هناك ضحايا ، ولو لم يوجد ضحايا لما كان هناك حث على الخير وحض ودفع إليه . ولذلك تجد روح الإيمان تقوى حين يهاج الإسلام من أي عدو من أعدائه ، وتجد الإسلام قد استيقظ فى نفوس الناس ، فلو لم يوجد فى الكون آثار ضارة للشر ، لما اتجه الناس إلى الخير . وكذلك الكفر من أسباب اليقين الإيمانى ، فعندما يطغى أصحاب الكفر فى الأرض فساداً واستبداداً ، نجد الناس تتدرع باليقين وتتحصن بالإيمان لأنه يعصم الإنسان من شرور كثيرة . إذن فوجود الشر والكفر هو خدمة لليقين الإيمانى .

﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴾

(من الآية ٥٧ سورة الأنعام)

نعم إن الحكم لله لأنه سبحانه يفصل بين المواقف دون هوى لأنه لا ينتفع بشيء مما يفعل ، فقد أوجد الحق هذا الكون وهو فى غنى عنه ؛ لأن لله سبحانه وتعالى كل صفات الكمال ولم يضف له خلق الكون صفة زائدة ، وقد خلق سبحانه الكون لمصلحة خلقه فقط . ويبلغنا الرسول :

﴿ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ
ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾

هذا بلاغ من رسول الله لكل الخلق بأن أحداث الكون إنما يجريها الحق بإرادته وبمواقيت لا يعلمها إلا هو سبحانه ، وهو - جل وعلا - الذى يأذن بها . . أى قل لهم أيها النبى : لو كان فى قدرتى وإمكانى ما تستعجلون به من العذاب لانتهى الأمر بينى وبينكم ولأهلكتكم بعقاب وعذاب عاجل غضبا لربى وسخطا عليكم من تكذيبكم به - سبحانه - ولتخلصت منكم سريعا ، لكن الأمر ليس لى ، إنه إلى الله الحكيم الذى يعلم ما يستحقه الظالمون . ويقول - سبحانه - فى موضع آخر من القرآن الكريم :

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ ﴾

(سورة هود)

وحكمة الله - إذن - هى التى اقتضت تأجيل العذاب إلى وقت يحدده الله ، وفى هذا ما يجعل بعضاً من الكافرين يجترئون على الله ويوغلون فى الكفر ويقولون : ما الذى يمنع عنا العذاب ؟

إنهم يقولون ذلك استهزاء وسخرية ، ولا يعلمون أن العذاب آت حتماً ولا خلاص لهم منه ؛ لأن الله صادق فى وعده ووعيده وسيأتيهم العذاب لأنهم استهزأوا وسخروا فلا مناص لهم عنه ولا مهرب لهم منه .

وفى موقع آخر يقول الحق :

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

(سورة العنكبوت)

وهكذا نرى تحدى الكفار لرسول الله صلى الله عليه وسلم ليأتيهم بالعذاب ، لكنه تحدٍ مردود عليه بأن الحق هو الذى يقرر ميلاد كل أمر ولسوف يأتيهم العذاب فجأة ، وهو واقع لا محالة وإن جهنم ستحيط بهم ، وسيغمرهم العذاب من أعلاهم ومن أسفلهم ، ويسمعون صوت المَلَك الموكل بعذابهم : ذوقوا عذاباً أنكرتموه وهو جزاء أعمالكم .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾

و « مفاتيح » هي إما جمع لِمِفْتح أو جمع لَمْفتح . و« المِفْتح » هو آلة الفتح ، ومثلها مثل « مِبرد » أي آلة البرد . وآلة الفتح هي المفتاح . و« مَفتح » هو الشيء الذي يقع عليه الفتح مثل الخزانة ، ونعلم أن بعض الأسماء تأتي على وزن « مِفْعل » أو « مفعال » . فإذا أخذنا « مفاتح » على أساس أنها جمع لِمِفتح ، فمعنى ذلك أن الحق سبحانه وتعالى يملك المفاتيح التي تفتح على الغيب . وإن أخذنا « مفاتح » على أساس أنها جمع « مَفْتح » أي خِزانة فمعنى ذلك أن الحق عنده خزائن الغيب . وكلا الأمرين لا زمان له . والخزائن لا يوضع فيها إلا كل نفيس وهو مخزون لأوانه ولكل خزانة مفتاح . يقول الحق عن قارون :

﴿ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ ﴾

(من الآية ٧٦ سورة القصص)

هكذا نعلم أنه لا يوجد مخزون إلا وهو كنز . وعند الحق مفاتح الغيب ، والغيب هو ما غاب عنك ، وهو نوعان : أمر غاب عنك ومعلوم لغيرك ؛ وهو غيب غير مطلق ولكنه غيب إضافي .

ومثال ذلك ، عندما يقوم نشال بسرقة حافظة نقودك وأنت في الطريق ، أنت لا تعرف أين نقودك ، ولكن اللص يعرف تماماً مكان ما سرق منك . هكذا ترى أنه يوجد فارق بين غيب عنك ، ولكنه ليس غيباً عن غيرك .

ولكن هناك ما يغيب عنك وعن غيرك ، ولهذا الغيب مقدمات إن أخذ الإنسان بها فهو يصل إلى معرفة هذا الغيب ، ومثا ما نراه في الاكتشافات العلمية التي تولد. أسرارها بأخذ العلماء بالأسباب التي وضعها الله في الكون ، وهو لون من الغيب الإضافي . وهناك لون ثالث من الغيب هو الغيب المطلق ، وهو الغيب الذي لا يعلمه إلا الله ، مثل ميعاد اليوم الآخر ، وغير ذلك من الغيب الذي يحتفظ الله به لنفسه .

ولذلك نقول : إنه لا يوجد أبداً في هذه الدنيا عالِمُ غيب إلا الله . وعنده سبحانه مفاتح الغيب ، هذا الغيب الذي لا نحس به حساً مشهوداً بالمدركات ، أو كان غيباً بالمقدمات أي أنه ليس له أسباب يمكن لأحدٍ أن يأخذ بها .

ويقول الحق :

﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

الحق سبحانه وتعالى - إيناساً لخلقه - حينما يأتى لهم بأمر غير محس لهم ، فإنه يوضح ذلك بالمحس . وعالم المشهد المحس إما مسموع وإما مرئى وإما متذوق وإما ملموس . وهناك عالم الغيب ، فقد يصطفى الله بعضاً من خلقه ليلقى إليهم هبَّاتٍ من فيضه وعطائه توضح بعض الأمور ، ومثال ذلك العبد الصالح الذى سار معه موسى عليه السلام وقال :

﴿ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾

(من الآية ٨٢ سورة الكهف)

ومثل هذه الهبة تأتى لتثبت لصاحبها أنه على علاقة بربه ، ولا يعطى الحق سبحانه هذه الهبات لتصبح عملاً ملازما للإنسان ، وجزءاً من طبيعته بحيث نذهب إليه فى كل أمر فيخبرنا بما ينبغى علينا أن نقوم به . إن الأمر ليس كذلك بل هى مجرد هبات صفائية ، يمنحها - سبحانه - وينزعها ويمنعها ؛ فسبحانه عنده مفاتح كل الغيب ، ويأتى لنا بالعالم المحسوس : « ويعلم ما فى البر والبحر » . وأتى الحق بالبر أولاً قبل البحر ، والبر محس لكل الناس بما فيه من جمادات ونباتات وأشجار وحيوانات وأناس وبلاد وطرق . وهناك من البلاد ما لا تطل على بحار أبداً ، ولذلك جاء الحق بالبر أولاً ، ثم جاء بالبحر الذى يمكن أن يُشاهد ، ولكن عالم البحر أخفى من عالم البر . وعوالم البحر تأخذ من مسطح الكرة الأرضية مساحات كبيرة للغاية وكل يوم نكتشف فى عالم البحار جديداً .

ومن بعد ذلك يردنا الحق إلى البر مرة أخرى فيقول :

﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الأنعام)

إلى هذه الدرجة يوضح لنا الحق علمه الأزلى ؛ فسبحانه يعلم كل ما يتعلق بورقة شجرة بعد أن تؤدى مهمتها من التمثيل الكلوروفيلى وتغذية الشجرة وإنضاج الثمار ثم سقوطها على الأرض . والسقوط كما نعرفه هو هبوط شيء مادى إلى أسفل ، وفسره العلماء من بعد ذلك بالجاذبية الأرضية .

وعندما تسقط الورقة من الشجرة تكون خفيفة الوزن ، والحق سبحانه وتعالى هو المتصرف فى الأجواء التى تحيط بمجال هبوطها ، وحركة الريح التى تحركها . ولماذا جاء الحق بمسألة الورقة هذه ؟ جاء لنا الحق بمثل هذا المثل لنعلم أنه عندما ذيل الحق سبحانه الآية السابقة بقوله :

﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

(من الآية ٥٨ سورة الأنعام)

إن هذا التذييل قد احتاج إلى أن يشرحه لنا الحق بأن يعلم أوقات تحركات كل ورقة من أية شجرة ، وهذا يدل على كمال الإحاطة والعلم ، فضلا على أن هذه الأمور لا يترتب عليها ثواب ولا عقاب ، فكيف بالأمور التى يترتب عليها الثواب والعقاب ؟ لا بد أنه سبحانه وتعالى يعلمها ويفصل فيها .

﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الأنعام)

إنه سبحانه أيضاً يعلم بالحبة التى تختفى فى باطن الأرض وأحوالها .

ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الأنعام)

أى أنه جلت قدرته يعلم أمر كل كائن فى هذا العالم ؛ لأن كل كائن فى هذه الدنيا إما رطب وإمّا يابس ، وسبحانه لا يعلم ذلك فقط ولكن كل ذلك معلوم له ومكتوب أيضاً . ويشرف على حركة تلك الكائنات الملائكةُ المدبرات أمرا ، وحين تجد الملائكة أن حركة الكون تسير بنظام محكم دقيق على وَفق ما فى الكتاب ، فإنها لا تفتر عن تسبيح الله ليلاً أو نهاراً :

﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة الأنبياء)

وللحق مُلك السموات والأرض ، ومن حقه وحده أن يُعبَد ، ولا تتكبر الملائكة عن عبادته والخضوع له ولا يشعرون بالملل من العبادة والتنزيه له سبحانه . وأنت أيها العبد تكون فى بعض الأمور مقهوراً ولك فى بعض الأمور اختيار ، وهو سبحانه عالم بما ستختار .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

نعلم جميعاً أن النوم ليس عملية اختيارية ، وفى بعض الأحيان نرى من يسلط الله عليه الهموم فلا يعرف النوم طريقاً إلى جفونه . ونعلم أن النوم عملية قسرية يخلقها الله فى الإنسان لتردعه عن الحركة بعد أن يستنفد كل قدرته على التحرك . والنوم لون من الردع الذاتى .

ولماذا جعل الحق النوم كالوفاة ؟

يعرف البعض أن الوفاة فى معناها هى فصل الروح عن الجسد . وكأن الحق يقول لنا : إياكم أن تظنوا أن وجود الروح فى الجسد هو الذى يعطى للإنسان الحياة والحركة والتصرف ، لا ، إننى سأحتفظ بالروح فى الجسد ولا أقدره على التصرف

الاختيارى ، وذلك حتى لا تفتتنوا فى الروح ؛ لأن هناك أجهزة لا دخل لاختيارك فيها مثل نبض القلب والتنفس ، وغير ذلك من حركات أجهزة الجسم . وضرب لنا الحق المثل بأهل الكهف الذين أنامهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا :

﴿ وَلَبِثُواْ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ ﴾

(سورة الكهف)

النوم - إذن - نعمة من الله جعلها فى التكوين الذاتى ، ولذلك إذا أردت أن تنام فليس ذلك بمقدورك ولكنه بمقدور الحق . إنه يقال عن النوم : ضيف إن طلبته عنّتك - أى أتعبك - وإن طلبك أراحك . ويأتى النوم للمتعب حتى ولو نام على حصى ، وقد لا يأتى النوم لمن يتهيأ له ولو كان على فراش من حرير .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة الروم)

النوم - إذن - آية كاملة بمفردها ، ولا يأتى النوم بالليل فقط ، ولكن يأتى بالنهار أيضاً ؛ لأن هناك أعمالاً تتطلبها حركة الوجود ويقوم بها أناس فى أثناء الليل ؛ لذلك ينامون بالنهار .

ويتوفانا سبحانه بالليل ويعلم ما جرحنا فى أثناء النهار ، ثم يرسلنا إلى أجل يعلمه هو سبحانه ، ثم يبعثنا فى يوم القيامة لينبئنا بكل أعمالنا . وسمّى الحق النوم وفاة ، وسمى الاستيقاظ بعثا ؛ لأن الإنسان فى مثل هذه الأحوال لا يملك حركته الاختيارية . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما وقف ليعلن بعثته بعد ثلاث سنوات من الدعوة سرّاً :

(إنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد) إنكم لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتجزون بالإحسان إحساناً ، وبالسوء سوءاً ، وإنها لجنة أبداً أو لنار أبداً) .

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : صعد النبى صلى الله عليه وسلم الصفا ذات يوم فقال : « يا صباحاه » فاجتمعت إليه قريش قالوا : مالك ؟ قال أرأيتم لو أخبرتكم أن العدوّ يصبّحكم أو يمسّيكم أما كنتم تصدقونى ؟ قالوا : بلى ، قال : « فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد » فقال أبو لهب : تبا لك ألهذا جمعتنا ؟ فأنزل الله سبحانه : « تبت يدا أبى لهب »[1] .

والحق سبحانه إما أن يشل الجوارح ويعطلها ويمنعها من الحركة ، أو يأخذ الروح من الجسد ، فعندما يشل الجوارح ويمنعها ينام الإنسان ، وعندما يأخذ الروح ويمسكها يحدث الموت . ولذلك يجب أن نفهم أن للنوم قانوناً ، ولليقظة قانوناً ، وللموت قانونا ، ولكل قانون قواعده ، فلا قانون اليقظة كقانون النوم ، ولا قانون النوم كقانون الموت ، ولا قانون البعث كقانون الموت . فهناك يقظة ، ونوم ، وموت وبعث ، ومن الخطأ أن نأخذ قانون حالةٍ ما لنطبقه على الحالة الأخرى .

إن الحق يضرب لنا المثل الواضح فينا : فالإنسان منا له حالة من اليقظة تسيطر الروح فيها على حركته الاختيارية ، وعندما ينام تعجز الروح عن الحركة الاختيارية وتبقى الحركات الاضطرارية . فعندما ينام الإنسان قد يرى بعضاً من الرؤى والأحلام يقابل فلانا ويراه مرتدياً زياً معيناً بألوان معينة ، فبأى شيء أدرك الألوان وعيونه مغمضة ؟ ، إذن فهناك وسائل إدراك غير العين . وكذلك الزمن يأخذ حظه فى أثناء اليقظة ، لكن فى أثناء النوم يرى الإنسان حلماً فى سبع ثوان ويحكيه فى نصف ساعة . وقد ينام اثنان فى فراش واحد ، أحدهما يحلم بأنه التقى بالأحباب والأصحاب ويأكل ويشرب ويسعد ويأنس ، والآخر يحلم بأنه التقى بأعدائه وعانى منهم ومن عراكه معهم ، إذن فالزمن اختلف وكذلك المعيّة . وهكذا اختلف قانون النوم عن قانون اليقظة . وكذلك يختلف قانون الموت عن قانون الحياة :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

---

(١) رواه البخارى والترمذى فى التفسير والبيهقى فى الدلائل وأحمد والطبرى .

والجارحة كما قلنا هى التى تعمل ليكسب الإنسان . إذن فقد جاء لنا الحق بكل حالات اليقظة والنوم والموت والبعث . ولكل حالة قانونها ، ونحن نعرف قانون اليقظة وقانون النوم لأننا نتعرض لهما ، فإذا قيل لنا : إن هناك قانوناً للموت فنحن نقيس ذلك على ترقى القوانين من اليقظة إلى النوم ، وعندما يقال لنا : إن هناك بعثاً فنحن نصدق أيضاً .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

والقاهر هو المتحكم بقدرة فائقة محيطة مستوعبة . ولقائل أن يقول : مادام الحق هو القاهر فكيف يكفر الكافر وكيف يعصى العاصى؟ . ونقول : إن الكافر يكفر بما خلق الله فيه من اختيار وكذلك تكون معصية العاصى . ولكن الحق أوجد فى الإنسان اضطراريات وقهريات تدلنا على أنه سبحانه فعال لما يريد . ولا أحد من المتمردين على منهج الله يجرؤ أن يسحب هذا التمرد على ما يجريه الله عليه من مرض أو موت .

والمتمرد أو الكافر إنما يختار من باطن الاختيار الذى خلقه الله فيه ، والله هو الحاكم للميلاد والموت ولا شىء للإنسان فيهما ، وكذلك هو سبحانه له تصريف أمور الغنى والفقر ، ولا يجرؤ متمرد على أن يتمرد على المصائب التى تحدث له وإن تمرد على منهج الله ؛ لأن التمرد هو من باطن خلق الله للاختيار الذى أودعه فى الإنسان .

﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ (سورة الأنعام)